الباب الأول

التاريخ قبل الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

مكانة علم التاريخ عند قدماء المصريين

المعروف أن الحضارة المصرية من أقدم الحضارات الإنسانية، حيث حصل الباحثون والمؤرخون على معلومات لها وزنها وثقلها في تاريخ مصر القديم مكتوبة على جدران المعابد والمقابر، ومنقوشة على الصخور باللغة الهيروغليفية في مصر. ولا ريب أن مثل هذه المعلومات كانت عاملاً مساعداً عظيماً يستند عليه الباحثون في مجال علم التاريخ.

ويذكر **جورج سارتون** في كتابه «تاريخ العلم» ـ الجزء الرابع ـ: أن هيكاتويوس تيوس (Hecataios teos) اليوناني الأصل الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد أثناء حكم بطليموس سوتر، كتب وصفاً رومانتيكياً لمصر جعل اليونانيين يألفون فكرة أن وادي النيل مهد المدنية. ثم قام الكاهن المصريماينتون الذي عاش بين اليونانيين، بإثبات أن الحضارة المصرية لها السبق على الحضارات الأخرى، في كتابه (تاريخ مصر القديم) المعروفة باسم (Aigypticaca)، وهذا يظهر واضحاً من الدراسة المتكاملة التي قدمها حول تاريخ مصر من البداية إلى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد. وقد استقى ماينتون معلوماته من وقائع أصيلة كانت في متناول يده في سجلات المعابد المنتشرة في مصر؛ لأنه كان قادراً على قراءتها وتحليلها تحليلاً علمياً متميزاً. والمتواتر عن ماينتون أنه كان صادقاً، يتحرى الموضوعية في جميع مادته التاريخية وتفسيرها.

استطاع قدماء المصريين أن يدوِّنوا معلوماتهم التاريخية الخاصة برحلات ومغامرات ملوكهم على جدران معابدهم ومقابرهم، وعليه تمكن الباحث والكاهن الكبير ماينتون من أن يستخدم المصادر الأولية في مصنفاته التاريخية، والجدير بالذكر أن المعابد آنذاك كانت مثل الجامعات، تُعقد فيها المحاضرات العلمية، ولذا كان طلاب العلم يتلقون دروسهم العلمية حول كل من العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والتاريخية والاجتماعية والمعمارية فيها.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه «المدخل إلى دراسة علم التاريخ»: «وكتب مانيتون كتابه (تاريخ مصر القديم) باللغة الإغريقية، وأهداه **لبطليموس** الثاني، واقتبس من الكتاب ـ فيما بعد ـ ما يهمهم في دراساتهم، واعتمد عليه اليهود والمسيحيون لإثبات تاريخ الحوادث الواردة بالكتب المقدسة، ونقل عنه الإغريق أيضاً ما كتبوه عن مصر فيما بعد، وإن تعرض النقل لشيء من التزييف وخاصة بالنسبة لليهود. ومما يؤسف له أنه لم تصلنا نسخة كاملة من الكتاب، وما وصلنا لم يعد شذرات وملخصات تناولت التاريخ المصري، وردت في كتاب المؤرخ اليهودي يوسيفيوس، وفيما كتبه المؤرخان المسيحيان فيما بعد جولياس، وإيزيبيوس».

وخلاصة القول: حرصنا شديداً على أن نكتب عن تاريخ مصر القديم حتى ولو نتفاً؛ لأنه من المعروف أن التاريخ يهتم عادة بحفظ الوثائق والأسانيد ونقدها وتمحيصها، وكذلك المؤرخ الناجح كان يركز على دراسة العادات الاجتماعية للشعب، وأسباب قيام الأمم وتقدمها واندثارها. ومن هنا نجد أنه من الضروري جداً أن نتحدث ولو قليلاً عن تاريخ مصر القديم، وإن كان هذا ليس تعبيراً عن المكانة الحضارية التي احتلتها الحضارة المصرية القديمة؛ لأن الحضارة المصرية القديمة كانت لها سمعة مرموقة بين الحضارات الإنسانية.

والمتواتر بين المؤرخين أن قدماء المصريين كانوا يعتنون كثيراً بالكتابة عن الطبقة العُليا من شعبهم، لذا أصبح معظم إنتاجهم التاريخي يختص بمغامرات وغزوات ملوكهم، ولكن في العصور الإسلامية تغير الوضع تماماً، حيث اهتم المؤرخون المسلمون برواد الفكر والقادة المتميزين، وعليه صار تاريخ الأمة العربية والإسلامية قنديلاً للحضارات جميعها.

دور سكان وادي الرافدين القدماء في علم التاريخ

حرص سكان وادي الرافدين القدماء تمام الحرص على أن يسجلوا أخبار أسلافهم بطريقة تاريخية، محاولين أن يلبسوا أجدادهم ثوباً جديداً من البطولات، وهدفهم من ذلك الاستفادة من الماضي وتوضيح الحاضر والسير في الطريق إلى المستقبل الباسم؛ لذا استطاع سكان بلاد الرافدين (مثل الآشوريين والبابليين) أن يدوِّنوا أنواعاً كثيرة من الأحداث التاريخية في كل من المجالات السياسية والعسكرية والدينية.

والجدير بالذكر أن شعب بلاد الرافدين القدماء، قدموا دراسة جيدة في ميدان كل من الأدب الشعبي والأساطير والقصص والملاحم، واستخدموا لتدوينها الألواح الطينية التي عثر عليها علماء الآثار في منطقة بابل.

ويذكر **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر نقلاً عن كتاب «ألواح سومر» لصمويل كريمر: أن معظم كتابات بلاد ما بين النهرين سواء في سجلات ملوكها أو تدوينها دارت حول حادثين لضبط التواريخ وهما: حدوث (كسوف الشمس) في عهد الملك الأشوري المسمى (آشور دان الثالث) الذي كانت مدة حكمه (٧٧٢ - ٧٥٥ ق.م)، وأهمية هذا الحادث أنه عندما حسب فلكياً تحدد له (١٥ حزيران ٧٦٣ ق.م)، فاستخدم المؤرخون ذلك كنقطة ثابتة لتحديد عهود الملوك الآشوريين قبل وبعد هذا اليوم في التاريخ. أما الحادث الثاني: فهو وثيقة انتيمينا: المعروفة ـ انتيمينا أحد ملوك السومريين المعروفين ـ الذي يروي مسجلها الأيام التي وقع فيها النزاع بين مدينة (لجش) و(أوما) أو المجاورين لها، ولذا صارت هذه الوثيقة مصدراً للمعلومات السياسية والعسكرية للسومريين، وقد قام بتدوينها الموكلون بسجلات المعابد والقصور. ولا شك أنها كشفت عن تفصيل الحوادث التاريخية التي تمت في عهد الملك السومري المسمى: انتيمينا (Antemena).

تمكن كل من علماء الآثار والتاريخ من الكشف بطريقة علمية بعض السجلات الخاصة بمغامرات وغزوات ملوك بلاد الرافدين القدماء التي اعتمد عليها الكاهن البابلي بيروسوس (Berossus) ـ الذي عاش في عهد الملك السلوقي (انطيوخس) الأول (٢٧٩ - ٢١١ ق.م) ـ في تصنيفه لكتابه الشهير (تاريخ بابل) الذي يحتوي على معلومات نادرة عن سكان بلاد الرافدين. والجدير بالذكر أن للكاهن بيروسوس شهرة عظيمة في تاريخ بابل؛ لأنه كان من كبار الكهنة هناك، عليه استطاع أن يستخدم نفوذه ليحصل على المعلومات الجيدة في سجلات كل من المعابد والقصور والمقابر منذ الخليقة والطوفان إلى فتح الإسكندر لبلاد بابل سنة ٣٣٢ ق.م التي استند عليها في تأليف كتابه، وهكذا أصبح كتاب (تاريخ بابل) لبيروسوس المصدر الفريد لتاريخ سكان وادي الرافدين القدماء.

ويذكر **ف. ج. هرنشو** في كتابه «علم التاريخ» ـ ترجمة وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادي ـ أن بيروسوس الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، اعتمد في تأليف كتابه (تاريخ بابل) على مصادر بابلية قديمة. وكان الكتاب لا يخلو من بعض الخرافات والأساطير، ولكنه أيضاً يحتوي على مادة علمية تتعلق بالمسائل الكونية، ولذا عرف بيروسوس (بالمنجم). وللأسف أن هذا الكتاب القيم قد فقد ولم يبق منه إلا نتفاً بسيطة موجودة ببعض الكتب القديمة التي أخذ مؤلفوها عنه. كما أضاف **جورج سارتون** في كتابه: «تاريخ العلم» ـ الجزء الرابع ـ قائلاً: «إن بيروسوس كان على علم عميق بتاريخ بابل وديانتها، وكان قادراً على الاستفادة من المصادر البابلية (أو الكلدانية).. وكان هذا الكتاب هو الوسيلة الرئيسة لانتقال علم التنجيم الكلداني إلى مصر وإلى العالم الهلنستي بوجه عام».

وخلاصة القول: لم يقر سكان بلاد الرافدين مبدأ أن الدراسة التاريخية يجب أن تكون محصورة في الحركات السياسية، بل بلوروا بالفعل أن علم التاريخ

عبارة عن محصلة لعدد كبير من العوامل الاجتماعية؛ لذا يمكن القول: إن الفضل يرجع لسكان بلاد الرافدين القدماء بجعل المؤرخ يهتم بأفكار الأمم وآمالهم.

ولا ريب أن لدى سُكان وادي الرافدين القدماء الحس التاريخي الذي يظهر واضحاً في دراساتهم العميقة للأحداث التاريخية الموغلة في القدم، ليس فقط من الوجهة السياسية ولكن من جميع جوانب نشاطات الإنسان على كوكب الأرض؛ لأنهم يعتقدون بأهمية خبرات الماضي وتجاربه الأوضاع الاجتماعية وتطورها وتعليل أحداث التاريخ، فلم يتوقفوا مثل قدماء المصريين على تسجيل أعمال الملوك من بناء وتعمير وحملات حربية ومغامرات.

وأخيراً يبدو أن الروح التاريخية لدى سكان وادي الرافدين القدماء كانت جيدة ومرتبة، ولكن يجب أن نعرف أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين جعلوا علم التاريخ بحثاً قبل أن يكون وصفاً. وعليه استطاعوا وبجدارة أن يؤسسوا علاقة رائعة بين جميع العوامل الاجتماعية. والجدير بالذكر أن مؤرخي العرب والمسلمين هم الذين حددوا منهج البحث التاريخي؛ وذلك بتصنيف المراجع واستخدام مبادئ النقد الخارجي للوثائق التاريخية والتعليل الدقيق الموثق لبعض العناصر التاريخية الغامضة.

مكانة علم التاريخ عند قدماء الهنود

المعروف لدى المؤرخين في العالم أن الشعب الذي ليس له تاريخٌ مكتوبٌ مثل الأقوام الهندية، يلجأ المؤرخون الذين يريدون الكتابة عنه إلى استخلاص تاريخه من الخزعبلات المنتشرة بين السكان والتي يتناقلونها جيلاً بعد جيل. ولا ريب أن الخرافات والأساطير المروية المشهورة بين أفراد سكان شبه القارة الهندية تحتوي على كثير من المعلومات الصادقة، ولكنها لا تخلو من المبالغات وخاصة في الأمور التي تتعلق بمغامرات ملوكهم؛ لذا يجب أن يكون المؤرخ حذراً يمتلك فراسة قوية فيما يدونه.

ويذكر **علي أدهم** في كتابه «تاريخ التاريخ»: «أن تاريخ الهند القديم كان يتميز بالأساطير والخرافات المتعددة التي كان يتغنى بها الكهنة في طقوسهم الدينية. والحق أن أساطير الهنود كانت ذات أسلوب رفيع شيق، يرتاح له القارئ، ويتمتع في قراءته، وأنه لمن المؤسف حقاً أن ليس لهذه الأمة تاريخ قومي مكتوب، وذلك ناتج لتعدد الجماعات والأجناس بين سكان الهند، مما ترتب عليه عدم وجود وحدة سياسة بينهم تجمع تاريخاً قومياً ليكون قنديلاً لمعالم حضارتهم العريقة، والجدير بالذكر أنه يوجد تنافر شديد بين العادات والتقاليد واللغات للشعوب الهندية، من هنا يصعب كثيراً أن يكون لديهم تاريخ مكتوب، يحفظ نشاطاتهم العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية وغيرها من الفناء».

لقد برزت معالم الحضارة الهندية في علم التاريخ في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، حيث انتشر تأثير علماء الهند في كل من الفلسفة والرياضيات والفلك وغيرها في المعمورة، وصار طلاب العالم يأتون إلى شبه القارة الهندية لنهل العلم بأعداد هائلة. وهكذا أصبحت مكانة سكان بلاد الهند في علم التاريخ معروفة وجيدة، والحقيقة أن الوثائق التاريخية تُعتبر ثروة

عظيمة لاحتوائها على معلومات نادرة، ليس فقط عن بلادهم ولكن عن منطقة الشرق الأدنى بأسرها (الأمة الإسلامية)، وذلك لأن الأمة العربية والإسلامية قد استفادت من مفكري بلاد الهند في كل من العلوم الأساسية والتجريبية، حيث تلقى بعض جهابذة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية تعليمهم هناك.

يقول **ول ديورانت** في كتابه «قصة الحضارة» ـ الجزء الأول من المجلد الأول ـ : «وليس في وسعنا أن نزعم أن هذه المدنية قد أفادت مدنيتنا إفادة مباشرة، كما استطعنا أن نتعقب بعض جوانب مدنيتنا إلى أصولها في مصر أو الشرق الأدنى (الأمة الإسلامية)؛ ذلك لأن مصر والشرق الأدنى كانا السلفين المباشرين لثقافتنا، بينما ندفن تاريخ الهند في مجرى آخر، وهو آخذ لتوه اليوم في مس تيار الحياة العربية والتأثير فيها، إنه على الرغم من حيلولة حاجز الهمالايا، قد استطاعت الهند أن تبعث إلينا عبر تلك الجبال طائفة من ألوان التراث فيه المشكوك مثل: النحو والمنطق والفلسفة والحكايات الخرافية والتنويم المغناطيسي والشطرنج».

وخلاصة القول: إنه من الصعب جداً على المؤرخ النزيه أن يقيّم بأمانة وصدق أعمال علماء الهند في علم التاريخ؛ لأنه من المعروف عند مؤرخي الهند تقديس الأجداد إلى درجة أنه لا مانع من نسبة أحد الأفكار وأصدقها إليهم، بل من مكارم الأخلاق عمل كهذا علاوة على الخرافات والأساطير التي يحتويها تاريخهم، ولكن الذي نستطيع الوصول إليه بوضوح تام أن المؤرخين في الهند نهلوا من منابع العلم في بابل (بلاد وادي الرافدين)، واستفادوا منها كثيراً ونوَّهوا عن هذا في مؤلفاتهم. وهذا التصرف الحميد يُعد في موازين أمانتهم العلمية.

لقد فشل مؤرخو الهند في إخضاع الوقائع التاريخية للفحص والتفسير والتدقيق وتوخي الحقيقة، حيث سيطرت عليهم كل من عواطفهم وتحيزهم

لأسلافهم؛ لذا لم يحققوا خاصية علم التاريخ التي تميز بهـا عـن العلـوم الأخـرى، (عناصر المصادفة) و(عنصر الشـخصية الإنسـانية وحريـة الإرادة) . بينمـا المؤرخ المسلم ببراعته وخبرته استطاع وبجدارة أن يضع الحقائق التاريخية في قالب مقبول؛ لأنه اهتم تماماً بتنظيم الظواهر التاريخية وتركيبهـا، والاجتهـاد في تعليلهـا، وخلـق الصيغة التاريخية المحببة للنفوس البشرية. وهكذا نستطيع القول: إن المـؤرخ المسـلم تفوق على المـؤرخ الهنـدي في تحـري نصـوص الأصـول، وتحديـد العلاقـة بينهـا، والابتعاد عن محاولة إخضاع الموضوع المعين لرأيه وفكره.

مكانة علم التاريخ عند قدماء الصينيين

من أقدم الحضارات الإنسانية الحضارة الصينية التي دوّنت عن طريق كل من الأساطير والخزعبلات التي تناقلتها الأجيال. كما اهتم المؤرخون الصينيون بذكر مغامرات ملوكهم والتغني بها، والتي كتبها مؤلفون من الحاشية الذين لم يسمح لهم بذكر أسمائهم بجانب أسماء مؤلفيها، وهذا الأمر خلق مشكلة للمؤرخين الذين يريدون توثيق بحوثهم. والحق أن المعلومات التي حصل عليها المؤرخون الصينيون للشعب الصيني عبر أساطيرهم كانت هامة جداً، لذا تمكنوا من كتابة تاريخهم بطريقة جيدة، والمتواتر أن كلاً من الأساطير والتمجيد لساداتهم من سمات علم التاريخ عند الصينيين. ولذا استطاع المؤرخون الصينيون أن يقفوا على معارف تاريخية قيمة، خدمت حضارتهم العريقة، على الرغم من أن المؤرخين في العالم يعتبرون هذه المعارف عبارة عن سلسلة من النظريات التاريخية الغامضة.

ويذكر **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر أن علم التاريخ عند الصينيين لا يختلف كثيراً عن وضع علم التاريخ لدى كل من بلاد ما بين النهرين ومصر، وإن كان اهتمامهم بأخبار أسلافهم أكثر اهتماماً، وذلك ناتج عن شدة احترامهم لهم، وحبهم للتعلق بالماضي والتغني بمآثرهم.

ولقد تميز المؤرخون الصينيون في اعتدالهم في إصدار الأحكام في كل من المجال السياسي والاجتماعي. وكما اشتهروا في عدد من كتاباتهم التي جعلت مدوناتهم التاريخية زاخرة بالمعلومات التي تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة، ولكنها لم تخرج قط عن المألوف في تدوين تاريخ الأسر الخاصة والملخصات الحولية والتراجم والسير.

obeikandl.com

والثابت أن تاريخ الصينيين القديم مملوء بالخرافات والأساطير الـتي كـانوا ينسبونها لســاداتهم وأكـابر قومهـم، وهـذا التصـرف نتيجـة تربيتهـم المنزليـة والمدرسية، لذا أبرزوا أعمال قادتهم بطريقة تلفت نظر الباحث اللبيب، وعليه بذل المؤرخـون جُهـداً عظيمـاً في استخلاص تـاريخ الصينيـين مـن قصصهـم وأساطيرهم المتعددة. كمـا اشتهر الصينيـون بطـاعتهم المنقطعة النظير لـولاة أمرهم، وباعترافهم بفضل أجدادهم عليهم في تطوير حضارتهم العريقة، وهذا بلا شك يدل على وفائهم.

ويذكر **بدرالدين حي الصيني** في كتابه «العلاقات بـين العـرب والصـين» أن علم التاريخ عند الصينيين يحتوي على معلومـات قديمـة جـداً منـذ سـنة (٢٣٣٢ قبل الميلاد)؛ أي في عهد هوانغ تي (Hawang-ti) الذي يُنسـب إليـه صُنع السفينة واختراع البوصلة، كما يُنسب لزوجتـه علـم تربيـة ديـدان القـز وصناعة الحرير والغـزل. ولكـن أول مـن حكـم أرض الصـين بطريقـة علميـة (فوني) (Funi) الـذي حصـل على شهرة جيـدة باختراعـه سـتة أنـواع مـن الحروف الكتابية، وبوضع نظام للأوقات، وبإيجـاد ثمانيـة رمـوز تخـص الفلـك وتقلب الدهر. ثم أتى بعده شينغ لونغ (Shing lung) الـذي ذاع صيتـه بأنـه أول من علم الصينيين مهنة الحرث والـزرع، واستخدام الأعشـاب في عـلاج المرضى. ثم حكم الصين جنشي وانتي (Chin- shi - Wanti) الـذي أحـرق جميع الكتب التي لها علاقة في علمي السياسة والتاريخ؛ وذلك لأنه كان خائفاً من تأثيرها على أفراد شعبه لمـا تحتويـه مـن الأفكـار والآراء الـتي يمكـن أن تفقـده السيطرة عليهم، لذا لـم يـترك بـين يديهـم إلا الكتـب الزراعيـة والطبيـة. وبقيـت الحركة الثقافية في الصين في تدهور مستمر حتى عهـد هانكاوتسـياو (٢٠٦ قبـل الميلاد)، الذي له اليد البيضاء في إحياءالحركة العلمية والأدبية في بلاد الصين.

وخلاصة القول: عرف الصينيون عبر التاريخ بولائهـم المُطلق لحكامهم وساداتهم، فكانوا ينعتونهم بالعقلاء والحكماء وأصحاب الرأي السديد. كمـا

يرون وجوب طاعتهم بدون تحفظ، والاعتراف الواضح الجلي بأن أعمالهم جميعاً نافعة ومفيدة لشعبهم وحضارتهم، ويلقنون ذلك لأبنائهم بالبيتِ والمدرسة، لذا عاش سكان الصين مسالمين.

والمتعارف عليه لدى المؤرخين في العالم أن الحوادث هي مادة علم التاريخ. أما عند المؤرخين الصينيين فإن الأساطير والقصص هي مصدر تاريخهم؛ لأنها تحمل بين طياتها أفكاراً متسلسلة. أما المؤرخون المسلمون فقد أثبتوا أن علم التاريخ لا يقتصر أبداً على أخبار وقصص وأساطير الأولين البابلية، بل يعرض التجربة الإنسانية عبر العصور، ويبحث في أسباب الحوادث ويُفسر نتائجها، فالطيب منها يوصي باتباعه، أما السيئُ منها فيحذر منه ويأمر باجتنابه.

Obeikandl.com

مكانة علم التاريخ عند اليابانيين

يردد اليابانيون في محافلهم المحلية والدولية: أن حياتهم التاريخية الحقيقية نشأت منذ القرن السادس قبل الميلاد، وأن الروايات التي وصلت إليهم من مصادر متعددة تروي: أن لهم الريادة في تأسيس الملكية التي يعتبرونها بحق جزءاً أساسياً من نظام حكمهم. وهكذا تطورت أطرهم السياسية والاقتصادية. أما ما يتعلق بكتابة التاريخ الياباني فإنه لا يختلف كثيراً عن منهج كتابة التاريخ عند الصينيين، حيث لعبت الأساطير والحكايات والتغني بالأجداد دوراً هاماً في محتوياته.

والمتواتر أن اليابانيين يرون أنه من الواجب على المواطن اللبيب أن يحكي لأبنائه وأحفادِه قصصاً خيالية عن الأجداد والسلف بوجه عام، لكي يحفزوهم على تقمص شخصياتهم. كطبيعة كل البشر، لم تخل هذه الحكايات من الإضافات الجوهرية التي تكسي هؤلاء الأجداد والسلف أثواباً من البطولات. ولا شك أن الهدف الرئيس من ذلك كله أن يحصل شبابهم على الموعظة من أحداث الماضي لتفسير الوضع الحاضر، والتخطيط للمستقبل على ضوء معطيات الماضي بعظاته وعبره.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «وقد عني اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهي أقدم الأسر المالكة تاريخاً. ومن المسائل التي لا تزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ الياباني، وهل كانت نتيجة حافز قومي أو كانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين، ويرى المتخصصون الأوروبيون في الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ الياباني الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد، وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة سبع مئة واثنتي عشرة الميلادية في كتاب

ترجم إلى اللغة الإنجليزية، والحوليات اليابانية المسماة (ينهونجن) التي تمت سنة (٧٢٠ ميلادية) يبدو فيها طابع التأثير الصيني. وفي القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب في كتابة وثائق تاريخية، وكان أنبه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سبجورا ميشيزن. ومن القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ في كتابة التاريخ الياباني واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخي».

المعروف أن اليابانيين كانت لهم صولة وجولة في العصور الوسطى، ولكن لم تتبلور مكانتهم أمام المؤرخين في العالم، بل كانوا مجهولين؛ وذلك بسبب شهرة الصينيين في العلوم الأساسية والتجريبية التي طغت على دور العلماء اليابانيين، ولحُسن حظ اليابانيين قام الأمير ميتو (١٦٢٢ - ١٧٠٠ ميلادية) بمساعدة مؤرخين من الصينيين بتأليف كتاب يحتوي على معلومات قيمة عن اليابان ومكانتها بين الأمم منذ نشأتها إلى عام (١٤١٣ ميلادية)، ولذا صار هذا المؤلف مرجعاً هاماً للباحثين في هذا المجال، حيث يشتمل على أخبار نادرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في اليابان. ومن هنا بدأت قافلة المؤرخين اليابانيين في البحث والتنقيب والاستقصاء في تاريخهم. ولذا نبغ من بينهم أعداد كثيرة في ميدان علم التاريخ.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «وأول مؤرخ ياباني صعد بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو: هاكيسيكي (١٦٥٧ - ١٧٢٥م)، ويعده اليابانيون أعظم مؤرخيهم أصالة وأوسعهم إحاطة. ومن كبار مؤرخي اليابان رابي سانجو (١٧٨٠ - ١٨٣٣م)، وقد عرف بنفاذ بصيرته، وسداد مذهبه، وقدرته الناقدة، والمقتطفات التي ترجمت من مؤلفاته تدل على أنه كان يجيد تصوير الأحداث ويُحسن عرضها. وظهر في اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتوري نوريناجا (١٧٣٠- ١٨٠١م) وهيرانا اسيتاني (١٧٨٦- ١٨٤٣م). ومن مميزات الأدب الياباني كثرة الروايات اليابانية

التاريخية، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرن العاشر والقرن الحادي عشر».

وخلاصة القول: يظهر أن المؤرخين اليابانيين ظلوا أمداً طويلاً متأثرين بمنهج الصينيين في كتابة التاريخ، حيث التزموا في تمجيد أجدادهم والسلف والاستشهاد بمواقف أبطالهم؛ لكي يخلقوا عند شبابهم وشاباتهم الحماس والاحترام لتاريخهم الذي يعتبرونه قنديلهم الفريد فوق كوكب الأرض، وذلك لأنهم يعتقدون أنه يحتوي على القواعد والأسس المنهجية التي لزم توفرها في الإنتاج التاريخي النافع.

قام المؤرخون اليابانيون المتأخرون بنجاح في ربط الأفكار التاريخية بتطبيقات عملية لتكون دروساً في التربية الوطنية. كما تمكنوا من الابتعاد تماماً عن السلبيات التاريخية والاستفادة الفائدة العظيمة من الإيجابيات والسلبيات، لذا استطاع المؤرخ الياباني بجدارة أن يرسم طريقه واضحاً محاولاً إبراز موارد بلاده وقوته أمام دول العالم.

openkandil.com

مكانة علم التاريخ عند اليونانيين

ضاعت معظم المعلومات اليونانية التي يمكن أن يستند عليها المؤرخ، وذلك نتيجة تأخر استخدام المؤرخين اليونانيين للكتابة، حيث إنه لم يزاولوا الكتابة في تدوين الأحداث التاريخية إلا في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، لذا افتقر المؤرخون اليونانيون الأوائل في أول الأمر إلى الوثائق المكتوبة التي تحتوي على المادة التاريخية الضرورية، ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً، فقد ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً المؤرخ الشهير هيرودوتس (HERODOTUS)، الذي ألّف كتاباً في علم التاريخ يشتمل على معلومات قيمة ليس فقط عن اليونانيين ولكن عن سكان المعمورة بأسرها. والجدير بالذكر أن المؤرخين اليونانيين اشتهروا بتسجيل الروايات الوهمية التي أعطت تاريخهم بُعداً اجتماعياً عظيماً، وكذلك استطاعوا أن يعرفوا بجدارة شواهد الماضي عن طريق القصص والأساطير التاريخية.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «والتدوين التاريخي عند اليونان بدأ متأخراً، وإن كان قد سبق غيره... وواجه التدوين أيضاً مشكلة اختراع فن الكتابة والزمن الذي بدأ استخدامها فيه، ولقد اشتدت حدة الخلاف بين العلماء عن الزمن، إلا أن كثيراً منهم رأوا أن فن الكتابة لم يمارس في بلاد اليونان إلا قليلاً حتى القرن السادس قبل الميلاد، وإن كانوا يعرفونها قبل ذلك كثيراً، ولكنه لم يكن شائعاً، وذلك لنفس الأسباب التي واجهت التدوين التاريخي في الحضارات الأخرى، وهي صعوبة توفر وسائل وأدوات الكتابة. وتعرضت الكتابات الأولى في اليونان لنفس مصير الكتابات الأولى في البلاد الأخرى، وهو الفقد والضياع والتلف، بل كانت أكثر نصيباً في ذلك، بسبب نوعية المادة التي سجلت عليها مثل الألواح الشمعية والبرديات وغيرها، لذلك لا يجد العلماء تاريخاً متسلسلاً لبلاد اليونان قبل هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد».

لقد تواتر أن المؤرخين اليونانيين بالغوا في تمجيد أبطالهم، بل أصروا على تثبيت ذلك في تاريخهم؛ لأن من أسباب نشوء الكتابة التاريخية عند اليونان الظروف السياسية والعسكرية التي مرت ببلادهم، سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي. كما اهتم المؤرخون اليونانيون اهتماماً كبيراً بالقصص التاريخية وخاصة التي لها صلة بحروبهم، بهذا تمكنوا من إرساء قواعد القصص التاريخي. الآن يمكن القول: إن المؤرخين اليونانيين استطاعوا استخلاص تاريخهم من كل من الملاحم والشعر والقصص والأحاديث الشفوية، محاولين بهذا الوصول إلى تفسير منطقي للأحداث التاريخية. وقد نهج هذا المنهج المؤرخ اليوناني هيكاتايوس (HECATAUES) الذي ولد سنة (٥٤٦ قبل الميلاد)، والذي يُعتبر من أوائل المؤرخين اليونانيين. وقد بذل جهداً كبيراً مع زملائه في تأصيل اليونان والتحدث عن حروبهم وهجراتهم بطريقة فلسفية.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما «طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار»: «بدأت الحضارة اليونانية بالازدهار في علومها ومعارفها منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد ولاسيما في بلاد إيونيا (السواحل الغربية والجزر القريبة من الأناضول)، ولكنها تمتد في جذورها إلى كثير من العناصر الحضارية إلى أن اقتبسها اليونان من الحضارة الإيجية (وهي الحضارة التي ازدهرت في كريت وجزر بحر إيجة ما بين الألف الثالث والثاني ق.م). كما أنها اقتبست أشياء كثيرة من الحضارات القديمة التي ازدهرت في الوطن العربي، وفي مقدمتها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل، وتميز المفكرون اليونان من بين ما تميزوا به، بولعهم وشغفهم في البحث والتحري والتعليل والبحث في أصل الأشياء وعللها، بحيث يصح القول: إن الفلسفة بمفهومها الصحيح كانت من إبداعاتهم الفكرية، وأن مفكريهم حولوا كثيراً من الأساطير الخاصة بأصل الكون والحروب والأشياء التي اقتبسوها من حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل إلى آراء وتعليلات فلسفية».

وخلاصة القـول: لـم يحتفـظ اليونـانيون بالوثـائق التاريخيـة المخطوطـة؛ لأنهم لا يرون أهميتها، لذا أتت معظم معلوماتهم التاريخية من الكتابة الأدبيـة التي سبقت ظهـور المـؤرخ العظيـم هـيرودوتس. والجدير بـالذكر أن الكتابة التاريخية عند اليونانيين بعد القرن السادس قبل الميلاد تميزت بمحاولة المؤرخـين اليونانيين الوصول إلى تفسير منطقـي للأحـداث، لـذا أخضعـوا علـم التـاريخ للتعليلات الفلسفية المعقدة في كثير من الأحيان.

أما دور المؤرخين المسلمين فقد سبق دور زملائهـم المؤرخـين اليونـانيين، حيث إنهم ركّزوا على دراسة الأحداث الماضيـة بإيجابياتهـا وسـلبياتها، لكـي يفهموا أحوال الشعوب وعاداتهم ونظمهم. كما أنهم يعرفون تمام المعرفـة أن موضوع علم التاريخ كل من الإنسان والزمان والمكان، وفائدته فهم الحقـائق التاريخية على وجهتها الصحيحة.

هيرودوتس:

هو **هيرودوتس الهاليكارناسي** من علماء التاريخ المتميزين بدماثة الأخـلاق والإنصاف، ذاع صيته بين زملائه بثقافته الواسعة وببسـاطة أسلوبه، وإن كـان يميل إلى الاستطراد في بعض الأحيان، ولد في مدينة كاريا (التي تقع في الجنـوب الغربي من آسيا الصغرى، والتي كانت خاضعة لتأثير كل من الفـرس واليونـان) وتعتبر إحدى مدن فارس، وقد أجـبر هـيرودوتس (HERODOTUS) أن يـترك مسقط رأسه بسبب الاضطرابات السياسية، لذا تنقل كثيراً واستقر في مدينـة تسوري في اليونان وتوفي فيها. لُقب بأبي التاريخ للمكانـة الـتي احتلهـا في هـذا الميدان الحيوي، عاش فيما بين (٤٨٥ - ٤٢٥ قبل الميلاد) . تمكن هـيرودوتس من صياغة علم التاريخ بطريقة منطقية مقنعـة، لـذا وصـف بعض المؤرخـين في المعمورة كتاباتـه التاريخيـة أنهـا تميزت ببُعدهـا إلى حـد معقـول عـن الخرافـات والأساطير، والجدير ذكره أن التاريخ كان قبله بمثابة تسجيل الأخبار.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما: «طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار»: «اشتهر هيرودوتس باللقب الذي أطلقه عليه الكاتب والخطيب الروماني الشهير شيشرون (CICERO) أي لقب: أبو التاريخ. وقد دوّن تاريخه الشهير وكان موضوعه الرئيسي أخبار الحروب اليونانية والفارسية (٤٩٠ - ٤٨٠ ق.م) في عهد الملكين الفارسين دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٥ ق.م) واحشويرش (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م)، ولكنه بالإضافة إلى هذا الموضوع الرئيسي ذكر هيرودوتس في كتابه معلومات كثيرة وشيقة عن الأمم والشعوب الأخرى.. ويمكن اعتباره أول مؤرخ تناول أحوال الشعوب وعاداتها ونظمها، ومما لا شك فيه أن أسفاره الكثيرة إلى الأقطار المجاورة مثل مصر وشمال أفريقيا وبلاد بابل، قد مكنته من جمع تلك الأخبار والمعلومات الطريفة. وكان هيرودوتس قد عمم استعمال مصطلح (HISTORIA) اليوناني».

اهتم هيرودوتس بتمجيد الأبطال، ويظهر ذلك واضحاً من مقولته المشهورة: «أنا أفهم تماماً بكتابتي هذا التاريخ الاحتفاظ بمآثر الرجال لكي لا يمحوها الزمان». كما أنه قام برحلات استكشافية كثيرة إلى الأماكن التي تُعتبر مصدراً لعلم التاريخ، فروي له عدد كبير جداً من القصص التي دوّنها في كتابه «التاريخ» كما سمعها بالضبط، لذا استطاع أن يقدم معلومات تاريخية قيّمة بأسلوب محكم يمتاز بالبساطة والوضوح والرقة. فقد عرض هيرودوتس حقائق تاريخية رائعة لكل من سكان مصر وسكان اليونان، تتعلق بعاداتهم وأخلاقهم ونظمهم العسكرية والسياسية والاقتصادية. والحقيقة أنه حاول جاداً أن يعيد بناء الأحداث الماضية ويربطها بالأحداث المعاصرة لكي يخطط للمستقبل المشرق.

اعتكف هيرودوتس في منزله للبحث والاستقصاء والتنقيب، فأنتج كتاباً رائعاً في علم التاريخ سماه «التاريخ» (HISTORIA)، يحتوي على قصص ملوك

كل من الليديين والفرس واليونانيين والفراعنة، وكذلك يشتمل على معلومات عامة عن تاريخ البشرية، ووصف مختصر عن جغرافية الأرض، ويُعتبر هيرودوتس أول من حاول أن يهمل كتابة الروايات الوهمية المرتبطة بالآلهة، لذا فكتابه خال منها. كما ركّز على البحث وتدوين وقائع الحروب الميدانية التي قامت بين اليونان والفرس، إذن كتاب «التاريخ» لهيرودوتس يمتاز بأنه عبارة عن كنز عظيم من المعارف المهمة التي لا يستغني عنها باحث في هذا المجال الحيوي.

يقول **جورج سارتون** في كتابه «تاريخ العلم» - الجزء الثاني -: «ويظهر لنا عرض هيرودوتس بوضوح، فيما قاله في الفقرة الأولى من كتابه (التاريخ): (الذي تعلمه هيرودوتس الهاليكارناسي عن طريق البحث، وتجده هنا ماثلاً بين يديك؛ وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضي في أذهان الرجال على مر الأيام، وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التي اضطلع بها اليونانيون والأجانب ــ وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم ــ إلى من يظهرها للملأ)، وكثير من الحقائق التي ذكرها استمدها من مشاهداته الخاصة، والبقية الباقية حصل عليها عن طريقة الرواية... وكتابه (التاريخ) يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة التي يمكن أن تنحي منه جانباً، كما أنه يغص بالاستطرادات الممتعة، والتي كان يجب إيرادها على طريقة المحدثين البارعين. ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق، ورأى بعض النقوش، ولكنه اعتمد على السماع في المقام الأول، وكان بارعاً في المقارنة بين الشهود وتمحيص الأخبار. وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود وسماع أقوالهم بعينها، إلا أنه بعد ذلك كله، يدلي بخواطره وآرائه التي غالباً ما تكون رقيقة دمثة، تنبع عن عقل ذكي، وتفيض من فكر صائب، وتجعلنا أحياناً نتذكر مونتيني.. وكان هيرودوتس في أغلب الأحيان يعبر عن شكه، ويحتاط لنفسه ببعض الملاحظات، كقوله: (أنا أقص القصة كما رويت لي)، وكان في بعض الأحيان يورد عدة روايات ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها».

وخلاصة القول: لم يقتصر كتاب هيرودوتس «التاريخ» على أخبار اليونانيين بل تعداها إلى أخبار الشعوب الأخرى في المعمورة. والحقيقة أنه أجاد إجادة رائعة في وصفه الحروب التي قامت بين اليونان والفرس، حيث حاول أن يبحث عن العلة التي كانت سبب الحروب بينهما بكل صدق وأمانة، فلم تغلب عليه العاطفة اليونانية. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين في العالم يحسبونه مواطناً فارسياً بناء على مولده.

على الرغم من طيبة وبساطة هيرودوتس في علاقاته الإنسانية كان جاداً في عمله، فقد كرّس وقته وجهده في كتابة كتابه «التاريخ» الذي يشتمل على ذخيرة نادرة من المعارف الهامة، ليست عن اليونان فقط ولكن أيضاً عن الأمم الأخرى. ولا شك أن منهجه الذي اتبع في تأليف كتابه المذكور أعلاه يُعتبر بحق موسوعياً راقياً. وقد استفاد من رحلاته الكثيرة في العالم، حيث جمع معلومات نادرة، منها المكتوب والبعض الآخر رواية شفهية، واشتهر بين المؤرخين في رواية القصص.

ثوكيديديس:

هو **ثوكيديديس بن أولوروس الأثيني** (THUCYDIDES)، لا نعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي، ولكن الثابت أنه أصيب بمرض الطاعون الذي كان منتشراً في أثينا سنة (٤٣٠ قبل الميلاد)، وشفي منه بعد أخذ العلاج الضروري. كما عُين قائداً للجيش (سنة ٤٢٤ قبل الميلاد)؛ لأنه كان من المهتمين في الشؤون العسكرية والسياسية.

إذن نستطيع أن نقول: إنه من مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد. والجدير بالذكر أن هناك بعض المؤرخين يرون أن ثوكيديديس عاش فيما بين (٤٧١ - ٤٠١ قبل الميلاد). ولقد نما وترعرع صاحب الترجمة في بيئة علم وثراء. ويظهر ذلك واضحاً عندما عزل من منصبه في الجيش؛ لأن جنوده فشلوا في

حماية مدينة امفيبوليس (AMPHIPOLIS)، تفرغ للدراسة والبحث في ميدان علم التاريخ الخاص باليونانيين، ولم يحتج إلى أي إعانة مالية من أحد.

عاصر ثوكيديديس في مستهل حياته الحروب الأهلية المعروفة باسم الحروب البيلوبونيزية (البيلوبونيز جنوب بلاد اليونان) التي حدثت بين أثينا وإسبرطة، فتعلم منها الكثير ، حيث أثرت على اتجاهاته الفكرية، ولا شك أن أسبابها ونتائجها من المصادر الهامة في تأليف كتابه القيم المعروف باسم (التاريخ القديم لليونانيين).. والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين يعتقدون أن الحروب البيلوبونيزية هي السبب الرئيسي في نجاحه الباهر في كتاباته في ميدان كل من علم التاريخ العسكري والسياسي. والحقيقة أن الصدفة لعبت دوراً عظيماً في الحركة التاريخية لديه.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «وخلف هيرودوتس في تدوين التاريخ في الحضارة اليونانية، المؤرخ الشهير ثوكيديديس (٤٧١ - ٤٠١ ق.م)، وكان أحد قواد أثينا العسكريين، وبعد أن عزل من منصبه لفشله في إحدى المعارك اعتزل الخدمة العامة، وتفرغ لكتابة تاريخ الحروب التي دارت ما بين دولتي أثينا وإسبرطة وأحلافهما، والتي عرفت في تاريخ اليونان باسم الحروب البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م)، وبذلك يكون موضوع تاريخه التاريخ المعاصر، وبالدرجة الأولى الأحداث التي عاصرها واشترك فيها، وتميزت روايته بالوقوف والنقد والتحليل، وكان تاريخه أول نوع مما يسمى بالتاريخ السياسي الحربي، وقد أودعه بعض الآراء والنظريات في تفسير التاريخ، ومنها أن في التاريخ دورات ثورية».

عندما عزل ثوكيديديس عن قيادة الجيش اليوناني، نفي من أثينا إلى سكبت هيل (SCAPTE-HYLE) لمدة لا تقل عن عشرين عاماً، كرَّس نفسه في هذه السنوات للبحث والتنقيب والاستقصاء في مجال كل من علم التاريخ العسكري والسياسي.

واعتبر ثوكيديديس كلاً من الحروب البيلوبونيزية وعلم الآثار وعلم الجغرافية، من المصادر الهامة جداً في تصنيف كتابه (التاريخ القديم لليونانيين) الذي عني فقط بالعالم اليوناني. وعرف ثوكيديديس بأسلوبه العسكري القوي الجريء، ومتابعته والتزامه الصدق في جميع تفسيراته للحوادث التاريخية التي ذكرها في كتابه. كما استنكر بشدة وصراحة استخدام الخرافات والأساطير، لذا كان كتابه خالياً منها تماماً.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «والكتاب يبدأ على الوجه التالي: ثوكيديديس الأثيني كتب تاريخ الحرب التي شبت بين البيلوبونيزيين والأثينيين، وقد استهل عمله عند بداية الحرب؛ لأنه اعتقد أنها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب، وحمله على هذا الاعتقاد، أن كلاً من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة، وأن الشعوب الهلينية جميعاً اشتركت في هذه الحرب، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذاك. وبعضها سارع إلى هذا الانحياز والبعض الآخر عقد العزم على ذلك، وكانت هذه الحروب أعظم حركة أثرت في الهلينيين، بل امتد أثرها إلى بعض الشعوب الأخرى، ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنها أثرت في مجموعة كبيرة من الجنس البشري.. (ولقد عاصرت هذه الحروب، وكنت في سن يسمح لي باستنتاج الأحكام، كما أنني تتبعت حوادثها بدقة، لكي أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة).. (قد يكون خلو كتابي من بعض الخرافات سبباً في جعله منفراً للأذن، ولكن لعل هنالك من يرغب في أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التي حدثت، أو التي يحتمل أن تحدث في يوم من الأيام، بنفس الطريقة، أو بطريقة مشابهة لها، وحسبي أن يجد مثل هؤلاء الناس، كتابي هذا مفيداً مهماً).. لم يكن ثوكيديديس يفكر في مجده الشخصي، بل كان يفكر في قيمة كتابه، شأنه في ذلك شأن كل عالم مخلص وقد بذل جهوداً مضنية في سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة»..

خلاصة القول: لقد بذل ثوكيديديس جهداً كبيراً للحصول على الوثائق التاريخية التي تتعلق بالشعب اليوناني، وعن طريقها تمكن من كتابة كتابه (التاريخ القديم لليونانيين) وقد التزم الصدق والحياد والأمانة، لذا صار كتابه هذا مصدراً قيماً للباحثين في ميدان علم التاريخ عند اليونان. كما برز بين زملائه في كتاباته المتقنة عن الحروب الأهلية التي اشتعلت في بلاد اليونان، وذلك لأنه عايشها، فألمَّ بجميع التفاصيل واستطاع بجدارة الربط بين الأسباب والمسببات مستخدماً ذكاءه ودهاءه.

المعروف أن منهج ثوكيديديس في علم التاريخ يخضع لكل من علم الفلسفة وعلم النفس، لذا ظهرت معظم تحليلاته سليمة ومنطقية ومقبولة من اليونانيين. كما أنه بلور فكرة أن علم التاريخ يشتمل على مادة علمية رائعة، تساعد المؤرخ اللبيب أن يتنبأ في نتائج الصراعات التي تحدث بين الأمم على الكوكب الأرضي. والجدير بالذكر أن كتابه المذكور آنفاً تميز عن غيره بربطه البيئة الجغرافية بالحوادث الاجتماعية، وكذلك محاربته الشديدة الأساطير والخرافات التي كانت تلعب دوراً هاماً في تدوين التاريخ عند اليونانيين. لذا اشتهر ثوكيديديس في انتقائه المراجع وفحصه الوثائق وتنسيقه المعلومات التي يستعملها.

بوليبيوس:

ولد **بوليبيوس** (POLYBIUS) بأركاديا، وأركاديا: منطقة واسعة تقع وسط البيولوبونيز جنوب بلاد اليونان، وعاش فيما بين (٢٠٥ - ١٢٣ قبل الميلاد) أي توفي عن عمر يناهز الثانية والثمانين سنة، وترعرع ونما في بيت علم وجاه، فأهله يعتبرون أنفسهم أنهم أعرق اليونانيين أصلاً. زاول مهنة السياسة في سن مبكرة في مسقط رأسه ببلاد اليونان، ولكنه في عام (١٦٧ قبل الميلاد) نقل كضيف شرف إلى روما وبقي هناك ربع قرن تقريباً معززاً مكرماً؛ لأنه جاء من أسرة عريقة، لذا صار رومانياً أكثر من الرومان

أنفسهم. اشتهر بأنه كان مؤرخاً عالمياً وقنديلاً لعصر العالمية الغربية المتمثل في الجمهورية الرومانية. كما عاصر كلا الحربين بين روما وإسبرطة، وبين الرومانيين والمقدونيين واللتين انتهتا لصالح روما، والمتواتر عنه أنه يصر دائماً على ضرورة معرفة أخلاق الخصوم معرفة جيدة في حالة الحرب؛ لكي يستفيد الجنود من نقاط الضعف عند العدو.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «ومن مشاهير المؤرخين الذين عاشوا في العهد الجمهوري الروماني، المؤرخ اليوناني بوليبيوس (٢٠٥ - ١٢٣ ق.م) الذي أخذه الرومان أسيراً أو رهينة إلى إيطاليا (١٦٧ ق.م) فاغتنم هذه الفرصة أثناء بقائه في روما، وألف في التاريخ باللغة اليونانية، واهتم في تاريخه بالدرجة الأولى بتدوين تاريخ الرومان، ولا سيما التاريخ الدستوري ونظام الحكم. كما ذكر طرفاً من الحروب والحملات الرومانية، واشتهر كتابه بعنوان (تاريخ الرومان واليونان)».

ألف بوليبيوس كتابه (تاريخ الرومان واليونان) والذي يحتوي على معلومات قيمة عن الرواية التاريخية، والدستور الروماني، وجغرافية البحر المتوسط، ولكنه ركز فيه على دراسة الوضع المزري في بلاد اليونان قبل مجيئه إلى روما. كما قدم أيضاً تفسيرات كثيرة حول الحروب الرومانية التي عن طريقها سيطرت روما على معظم بلدان العالم (٢٢٠ - ١٦٧ ق.م). والجدير بالذكر أنه أعطى أهمية كبيرة للاستراتيجية العسكرية وعلاقتها بالعوامل الجغرافية، ولذا فقد زار عدداً كبيراً من أقطار العالم التي يكثر فيها جهابذة العلم، وعن طريق الرحلات المتكررة حصل على وثائق أصلية تحتوي على معلومات تاريخية في غاية الأهمية، استخدمها في كتابه المذكور أعلاه. أما أسلوبه الذي تبناه فقد تقيد بأسلوب التحليل الموضوعي للأحداث التاريخية الذي عناصره كل من دراسة الوثائق والمعرفة الجغرافية والإلمام بالخبرة العلمية.

obeikandi.com

يقول **جورج سارتون** في كتابه «العلم» ــ الجزء السادس ــ: «أنه صنف كتباً متعددة، وخلد بواحد منها ما كتبه في المدة من (١٦٧ إلى ١٤٠ قبل الميلاد)، وهو كتاب (التاريخ العام). يصف الغزو الروماني لجزء كبير من العالم في نصف قرن أو يزيد (٢٢٠ - ١٦٧ ق.م)، ويبين كيف أصبح المؤلف رومانياً بعد ذلك. ويقع المصنف في أربعين جزءاً، لم يصلنا منها إلا الخمسة الأوائل.. ولا تعنينا التفاصيل كثيراً، ويكفي أن نقول: إن تاريخ بوليبيوس يصف (العالم) كما عرفه من سنة (٢٦٤ إلى ١٤٦ ق.م)، أي ١١٨ عاماً في غاية الأهمية. وكان غرضه فنياً تماماً، هو تعليم السياسة العلمية لرجال السياسة والموظفين المدنيين. وكانت تجربته أكمل ما تكون؛ لأنه قضى مرحلة النشأة والتكوين (٤٠ عاماً) في اليونان، حيث شهد نتائج الفوضى السياسية، ثم الأربعين السنة التالية في روما أو في رحلات لا يلبث أن يعود منها دائماً إلى روما. أكثر من الرحلة إلى اليونان، وإيطاليا، ومصر، وصقلية، وموريتانيا، والجزائر، وإسبانيا، والجال، وربما انجلترا، فلا غرابة أن يكون جيد المعرفة بالأقاليم والأماكن. وكان شاعراً تماماً بضرورة وصف البيئة الطبيعية للمحاولات الحربية أو الإدارية، كما كان مزوداً بما يكفل له وصفها وصفاً صحيحاً، إذا قرأ كل كتاب له صلة بهذا الموضوع باللغة اليونانية أو اللاتينية، ووقع تحت يديه كثير من الوثائق العامة والخاصة. وأخيراً ــ وهذا هو الأهم ــ كان على صلة شخصية في البداية ببعض قادة اليونان، وبعد ذلك بقادة روما والعالم كله، لذا ظهر كتابه (تاريخ الرومان واليونان) متكاملاً».

وخلاصة القول: لقد تأثرت بحوث بوليبيوس التاريخية كثيراً بمسببات وتبعيات ونتائج الحروب التي تمت بين اليونان، ونتيجة لذلك كتب تاريخاً موثقاً للدولتين الرومانية واليونانية. والجدير بالذكر أن بوليبيوس قضى أكثر من ثمانية عشر عاماً في روما يبحث وينقب ويستقصي في المعارف التاريخية التي كانت موجودة في مكتبات أثينا، وخلال فترة بقائه بين الرومانيين

استطاع بذكائه أن يكون علاقات صداقة مع القادة وكبار المفكرين هناك، لذا فهم عن كثب أنظمة وأخلاق الرومان، وحصل أيضاً على جميع السجلات الرسمية لبلادهم.

كان بوليبيوس واسع الثقافة، ويجيد اللغتين اليونانية واللاتينية،ومعروفاً بين زملائه في بحوثه التاريخية، كما أنه لم يحاول أبداً أن يسلي قرَّاءه ببلاغته الأدبية، بل تمكن بجدارة من تدوين آرائه التاريخية بأسلوب واضح وسهل ليثقف القراء. واشتهر بعدالته وصدقه في أحكامه على الحروب التي قامت بين اليونانيين والرومانيين. وهذا يظهر واضحاً من نقده القاسي لحكام بلاده اليونانيين، حيث رصد سلبياتهم وأخطاءهم الخطيرة، وفي نفس الوقت أبرز مثالب الحكام اليونانيين الذين تعاونوا مع الرومان، ولا شك أن حرصه هذا ناتج من معرفته بأهمية علم التاريخ وأنه الوسيلة الجيدة لتعلم الحياة.

obeikandl.com

مكانة علم التاريخ عند الرومان اللاتين

في بادئ الأمر كان المؤرخون الرومانيون الأوائل يستندون كثيراً على المصادر، البعض منها ضعيف مثل: كل من القطع الأدبية والوثائق والنقوش والنقود التي لم يثبت صحتها، والخرافات والأساطير، واستمروا على هذا المنوال إلى أن اكتملت قوة الدولة الرومانية، وعندئذ سيطر المؤرخون اليونانيون على الوضع وأصبحوا يكتبون تاريخ روما بلغتهم اليونانية، وهكذا تأثر المؤرخون الرومانيون في منهج اليونانيين التاريخي، وعليه تحسن منهج كتابة التاريخ الروماني، وصارت هذه الفترة من التاريخ الروماني تعرف باسم مرحلة النضج؛ لأن جميع المؤلفات الرومانية التي لها علاقة بعلم التاريخ كانت مكتوبة باللغة اليونانية، ثم بعد فترة طويلة على مشارف القرن الأول قبل الميلاد، بدأ المؤرخون الرومانيون يستخدمون لغتهم اللاتينية في تسجيل أحداثهم التاريخية. لقد ورث مؤرخو الرومان عن مؤرخي اليونان الأساليب الفنية في تدوين كل من الحوادث والظواهر التاريخية.

والجدير بالذكر أن المؤرخين اللاتينيين تحمسوا لأبطالهم، وصاروا يمجدونهم ويستشهدون بمواقفهم البطولية في حروبهم ضد أعدائهم، واعتبروا هذا الأمر واجباً ولقّنوه لأبنائهم في المدارس والمنازل.

يقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «يجمع المفكرون على أن المعرفة التاريخية عند مؤرخي الرومان كانت محدودة، لذلك لم يبتكروا جديداً في المنهج التاريخي، واعتمدوا ـ في بادئ الأمر ـ على وثائق هزيلة وبدائية، فغلبت على كتابتهم البلاغة الأدبية أكثر من المعرفة التاريخية الموثقة توثيقاً دقيقاً، ولولا مشاركة الكتاب الإغريق (اليونان) في التدوين لحدثت انتكاسة كبيرة له، وظلت التقاليد اليونانية في الطابع والأسلوب هي السائدة، وعالج المؤرخون الرومان موضوعاتهم متأثرين بالمنهج اليوناني، وأول ظاهرة

لهذا الأمر أن الرومانيين ظلوا يكتبون ــ حتى الأدب ــ باللغة اليونانية، وكانت معظم المؤلفات التاريخية بهذه اللغة، مثل حوليات فابيوس بكتور، وكان أول كتاب أشير فيه إلى أسطورة أصل روما الطروادي حوليات الشاعر إينياس سنة (١٦٩ قبل الميلاد)».

وفي أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ظهرت لدى المؤرخين الرومانيين حركة الاهتمام بدراسة تراثهم القديم، وذلك بهدف إحيائه والتمسك به، لذا فرضت الحكومة الرومانية تمجيد السلف وإحياء التقاليد الرومانية القديمة. وعليه اتجهوا إلى تاريخ الحوليات، وصبغوا المنهج التاريخي بصبغة تتناسب والأفكار الاجتماعية والسياسية القائمة حينئذ. لذا بلوروا بوضوح للملأ موارد روما وقوتها، وصاروا يتغنون ويتفاخرون بذلك. كما اتجهوا كذلك إلى ربط علم التاريخ بكل من دوائر المعارف والموسوعات والفهارس، وأصبح الأرشيف (مكان تخزين قرارات الدولة) من المصادر الهامة للمؤرخ، بل تحول المؤرخ الروماني إلى موظف لدولتهم، يهتم بتسجيل عدد المواليد والوفيات وما تقدمه له السلطة من المعلومات التاريخية.

يقول **قاسم يزبك** في كتابه «التاريخ ومنهج البحث التاريخي»: «وكان للتاريخ عند الرومان دائماً شخصية مركزية، فكانت روما تلك الشخصية إذ إنها سبب تاريخهم نفسه، ومنذ عهدهم أصبحت كتابة التاريخ وظيفة من وظائف الدولة؛ لأنه قد أعطى لكل مؤرخ أن يؤمن لشعبه عناوين نصره، وكنزه من الحكمة السياسية. لا شك أن هذا الاهتمام النفعي استطاع أن يضر بروح البحث عن الحقيقة.. وهكذا صوّبت روما كل انتباهها إلى ذاتها، فقدرت أن تدمر الشعوب واحداً بعد الآخر غير مبقية منها إلا أثراً بعد عين. لكن التقليد الملحمي المأخوذ عن اليونان أخر المؤرخين عن الاهتمام بغير العظماء من الناس، ونتيجة لذلك بقي التاريخ سرد وقائع، فبقيت جماهير البشر غارقة في كدها وكدحها، وظلت همومها اليومية يغمرها النسيان».

وخلاصة القول: لقد تمكن الرومان باستيعابهم حضارة كل من البابليين وقدماء المصريين واليونانيين من السيطرة على أجزاء كبيرة جداً من حوض البحر المتوسط،و نتيجة لذلك أصبح انتماء المؤرخ اليوناني لروما أكثر من ولائه لبلاده اليونان. وهذا يوضح تماماً الوضع المتدني الذي وصلت إليه الحياة الاجتماعية والحياة السياسية عند اليونانيين، وذلك يعود إلى تبني الرومان نظاماً للحكم يميل إلى الإنصاف بين مواطنيهم، ولكن الوضع المذكور لم يستمر طويلاً، بل تدهور مجتمعهم تدهوراً خطيراً عندما سيطر على شؤون الدولة الرومانية القساوسة والرهبان، وعليه صار التاريخ اللاتيني خاضعاً لآراء اللاهوت مسخراً لفلسفاتهم العقيمة.

يوليوس قيصر:

لمع **يوليوس قيصر** (JULIUS CAESAR) في أواخر القرن الأول قبل الميلاد بين أحبابه، بأنه كان مؤرخاً بارعاً وعسكرياً فذاً وسياسياً محنكاً، وعاش فيما بين (١٠٠ - ٤٤ قبل الميلاد) ، روماني المولد والمنشأ. وكان من الحكام الرومان البارزين، وقتل وهو في سن ٥٦ عاماً، وفي وقت متأخر من حياته ذاع صيته بين زملائه لكونه قائداً شجاعاً خاض معارك كثيرة وانتصر فيها، ولذا يعتبر رائداً عسكرياً وسياسياً موهوباً، ولثقته العظيمة بنفسه استطاع أن يشرح لجنوده وطلابه بوضوح وببساطة المعارك التي خاضها والتي شاهدها، وذلك بقصد أن يفهموا أسباب الحروب ونتائجها. كما لقبه معاصروه بديقوس (أي المقدس) لأعماله المتميزة، ليس فقط في حقل العلوم العسكرية، ولكن في مجالات أخرى وفي مقدمتها علم التاريخ، وهذا يظهر جلياً في كتابه (كتاب التعليقات) الذي يمتاز بما يحتويه من المعلومات عسكرية وتاريخية لا يستغني عنها الباحث في ميدان التاريخ الروماني. والجدير ذكره أن المؤرخين في العالم يجمعون على أنه كان أحد الأبطال المعروفين في التاريخ القديم، وعلى رأس سائر المؤرخين.

ومن المعروف أن التاريخ الروماني سيطرت عليه أقلام يونانية إلى أن ظهر على الساحة يوليوس قيصر الذي كتب كتابه المشهور عن الحرب الغالية (THE GALLIC WAR)، والذي وضح فيه أن الحرب انتهت بضم بلاد الغال إلى الدولة الرومانية، وكتاباته التاريخية توحي بالاهتمام بالجوانب الجغرافية، لذا عرض دراسة متكاملة عن الدول الأوربية من حيث جغرافيتها وثرواتها وعادات قبائلها المتنوعة، ونستطيع القول: إن المؤرخ العسكري يوليوس قيصر قد مزج علم التاريخ بعلم الجغرافية، حيث استعان في الخرائط الجغرافية في تحديد المناطق والأنهار والقبائل التي يريد دراستها، واشتهر يوليوس قيصر بنزاهته، فلم يعرف عنه الكذب أو تزييف الحقائق، بل كان مؤرخاً عسكرياً مخلصاً بعمله.

ويقول **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر: «ويوليوس قيصر رجل وبطل وحاكم سياسي، كان إمبراطوراً لروما، ولُقِّبَ بلقب (ديقوس) أي المقدس اعترافاً لعظيم أفعاله. دَوَّخَ الجيوش الرومانية، وجال بها شرقاً وغرباً، ووسع الإمبراطورية حتى بلغت الجزر البريطانية، وغلب أمم بلاد غالة (فرنسا الآن)، هذا فضلاً عن معاركه، الداخلية من أجل السلطة ولإخضاع القوى السياسية لسلطانه. كل ذلك منحه تجارب كبيرة بجانب ما كان يتملكه من خاصية أدبية. بدأت حياته الأدبية في وقت متأخر، وكتب كُتُباً لم يبق منها إلا كتاب (التعليقات)، وذكرياته الحربية ووصف معاركه في بلاد الغال، ومعاركه السياسية الداخلية، وفتح بكتابه هذا باباً لطراز أدبي جديد لا يتوافر إلا لمن كان أديباً، وسنحت له الأيام بأعمال حربية. ويُعد كتابه خير ما كتب من المذكرات في العالم القديم. فقد شرح معاركه في بلاد الغال وغيرها في وضوح تام، يمتاز بنصاعة الأسلوب وقوته والتزام كبح نفسه والترفق والاعتدال في سرده الأحداث، وتصوره للواقع، مما كشف عن عبقريته المتعدده الجوانب، وقد صار كتابه مصدراً للمعلومات عن بلاد الغال».

وخلاصة القول: لقد كان يوليوس قيصر حاكماً سياسياً، ثم صار مؤرخاً في آخر أيام حياته يهتم بكل من الجانب العسكري، والجانب السياسي من علم التاريخ، لذا يعتبر أعظم حدث تاريخي انفرد به يوليوس قيصر تاريخ الحرب الغالية التي أعطت كتاباته التاريخية جاذبية علمية، وذلك لحسن عرضه وتحليلاته العسكرية والسياسية الناتجة عن خبرته الطويلة في هذين المجالين الحيويين، والحقيقة أن تفننه في كل من الاتجاه العسكري والاتجاه السياسي لم تتغلب أبداً على اهتماماته الأدبية والتاريخية. وعليه تميزت كتاباته التاريخية بالدقة وسهولة التعبير والبُعد كل البُعد عن التنميق.

وصدق **جورج سارتون** عندما قال في كتابه «تاريخ العلم» ـــ الجزء السادس ـــ: «كان قيصر (النصف الأول من القرن الأول ق. م) في ابتداء أمره حاكماً وسياسياً، ثم أصبح قائداً. وبرزت عبقريته الحربية في وقت متأخر نسبياً من حياته، وبوجه عام لم تبدأ حياته الأدبية والتاريخية إلا في وقت متأخر من ذلك، رغماً من أنه كان بالفطرة من رجال الأدب.. ولم يبق من كتاباته إلا (التعليقات) وهي ذكريات من معاركه الحربية، وقد فتحت الباب لطراز أدبي جديد، وستظل نماذج لهذا النوع. إن الرجال الذين تسنح لهم فرصة القيام بأعمال حربية عظيمة قليل، وقليل من هذه القلة لهم القدرة الأدبية على تصويرها... وتُعد (التعليقات) مصدرنا الأساسي للحوادث المروية، وهي تصفها وصفاً بارعاً؛ لأن قيصر يخرج معاركه ببساطة ووضوح تامين. ولما كان قيصر كاتباً مطبوعاً، كما كان قائداً مفطوراً، فلا غرو أن تكون (التعليقات) أحد روائع الأدب التاريخي..».

وهكذا يمكن القول الآن: إن يوليوس قيصر سخّر الأدب لخدمة علم التاريخ. وهذا يظهر من أعماله التاريخية التي تمتاز بالسلاسة والوضوح والصدق والاختصار والبُعد عن النفاق والمجاملات، كما حاول أيضاً أن يقدم

معلومات موجزة عن أجناس البشر التي تعامل معها في حياته. بهذا سلط علم التاريخ على علم الإنسان. إذن نستطيع القول: إن إنتاجه عبارة عن عمل موسوعي يفخر به الرومان.

فارو:

يُعتبر **فارو (Varro)** من علماء النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد المتفوقين ليس فقط في علم التاريخ ولكن في علوم شتى، فهو موسوعة عصره، ومن الذين لهم صولة وجولة في مجال الموسوعات التاريخية. ولقد عينه يوليوس قيصر مسؤولاً عن أول مكتبة عامة أنشئت في روما. عاش فيما بين (١١٦ - ٢٧ قبل الميلاد). وتوفي بعد يوليوس قيصر في ١٧ عاماً. ذاع صيته بين زملائه من خلال كتاباته التاريخية والأدبية، حيث أنتج إنتاجاً عظيماً في مجال علم التاريخ، والظاهر أنه كرَّس نفسه في أول الأمر لجمع الكتب والوثائق التي استفاد منها كثيراً في كل من مؤلفاته التاريخية والأدبية، ونتيجة لذلك فقد أنجز أيضاً كلاً من مجموعة الآثار الإلهية المقدسة، ومجموعة الآثار الإنسانية الدنيوية، وكتاب أعلام الرومان واليونان، وكتاب تاريخ الأسرة الرومانية، وكتاب تاريخ الشعب الروماني وغيرها. والمتواتر أنه نقل الكثير من معلوماته التاريخية من مؤلفات الأقدمين من اليونانيين والرومانيين. ولكن بطريقة فنية لم يخف فيها الوقائع والحقائق التاريخية مهما تكن، بل حاول أن يكشف عيوب الماضي وأخطاءه لكي يتجنبها معاصروه ومن سيأتي في المستقبل من الأحفاد.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «والحق أن فارو كان أعظم باحث في أمته. وكانت كتبه تستخدم طوال عهد الإمبراطورية الرومانية بما في ذلك عصر تدهورها، كما يستخدم اليوم القواميس أو دوائر المعارف. نعم إن وسائلنا أفضل بدرجة لا حد لها، ولكن علينا أن نتذكر أن وسائل فارو، وإن

تكن بدائية وناقصة، تعد الأولى من نوعها.. فقد كان إلى حد ما فيلسوفاً أو على الأقل مفكراً حاول أن يفهم ويفسر أصل الظواهر الاجتماعية وتطورها.. وعلى الرغم من أن جوهر معلوماته كان بالضرورة من أصل يوناني، إلا أنه حاول أن يضيف إليها من المعلومات الرومانية بمقدار ما يستطيع، وأن يفسر الأمور اليونانية بلغة رومانية وبالعكس. كان هدفه الأساسي النهوض بالمؤسسات الرومانية أو تسويفها، وكان مقتنعاً أن الدين هو السبب الرئيسي في الطهر والقوة والوحدة».

وينقل **جورج سارتون** في كتابه السابق: «أن شيشرون سرَّ كثيراً فيما كتبه فارو عن الدولة الرومانية منذ بدايتها إلى زمانه، حيث دون أفكاره جميعها بوحي من نفسه وليس بتكليف من أي مسؤول في دولته، ولذا كتب شيشرون له ما نصه: «كنا هائمين على وجوهنا كأغراب يزورون مدينتنا ذاتها، حتى قادتنا كتبك ـ إن صح هذا القول ـ إلى قلب الوطن. ويسَّرت لنا أخيراً أن نتبين من نكون، وأين نوجد. فقد كشفت لنا عن عمر مدينتنا وأحداث تاريخها وقوانين ديانتها وهيئة كهنتها،ومؤسساتها المدنية والحربية ومواضع أحيائها وأسوارها، وكشفت لنا عن مصطلحات المؤسسات الدينية والمدنية وأصنافها وأساسها الأخلاقي والعقلي، وألقيت أضواء ساطعة على شعرائنا. وبوجه عام على الأدب اللاتيني واللغة اللاتينية، وألفت شعراً بديعاً بأساليب متعددة وفي جميع البحور، ولخصت من الفلسفة في فروعها المتعددة ما يكفي أن يحرك همة طالب البحث، وإن لم يكف لاستكمال تعليمه».

وخلاصة القول: لقد بلور فارو في جميع بحوثه التاريخية والثقافية كلاً من العوامل الجغرافية، والمؤسسات العلمية، والمدارس الاجتماعية، والحوادث التاريخية بطريقة علمية، تدل على أنه كان واسع الاطلاع عارفاً بالعلوم المتصلة بدراسة علم التاريخ وكتابته. ولقد عرّف أيضاً بدور الكهنة والعرافين وخطورتهم على المجتمع الروماني. كما حث الشباب الروماني على دراسة

علمي التاريخ والاجتماع؛ لأن لهذين الحقلين دوراً عظيماً في تطور الدولة الرومانية. والمتواتر أنه كان لفارو منهج فكري مختلف عن غيره من المؤرخين الرومانيين، حيث ركّز في جميع دراساته على علم الفلسفة وصلتها الوثيقة بعلم التاريخ، لهذا اعتبر بأنه أعظم باحث روماني.

تيتوس ليفي:

هو **تيتوس ليفي** (Livey) وفي بعض الأحيان يكتب اسمه **ليفيوس** (Livius) وهومن كبار المؤرخين الرومانيين. لذا أسند إليه الإمبراطور أغسطس كتابة تاريخ الرومانيين منذ البداية حتى زمانه، وفرغه لهذه المهمة الصعبة، فألف كتابه المعروف باسم (تاريخ العقود الرومانية) الذي يحتوي على تاريخ كامل لروما. عاصر ليفي كلاً من مؤرخي أواخر القرن الأول قبل الميلاد ومؤرخي أوائل القرن الميلادي الأول، أي عاش فيما بين (٥٩ قبل الميلاد ـ ١٧ م)، وكانت ولادته في مدينة باتفيوم الواقعة شمال شرق إيطاليا والتي تعتبر من أعظم مدن إيطاليا، ونشأ وترعرع في أحضان أسرة عريقة لها شأنها، ولا نعرف بالضبط أين قضى معظم حياته، ولكن الثابت أن الإمبراطور أغسطس قربه منه، وجعله مستشاره الخاص في كل من الأمور السياسية والأدبية والتاريخية، وبهذا ذاع صيته بين زملائه. كما اشتهر بقدرته الفريدة على كل من الخطابة وأدب الحوار، لذا احتل مكاناً مرموقاً في بلاط الإمبراطور أغسطس كمؤرخ وخطيب.

يقول **جورج سارتون** في كتابه آنف الذكر: «استهدف ليفي من عمله البناء خدمة الأمة والدفاع عن الوطن. ولما كان تحت رعاية أغسطس، فقد كان المؤرخ الرسمي للإمبراطورية، حقاً لم يحمل مثل هذا اللقب، ولكن مركزه كان شبيهاً بمركز كتاب التاريخ الذين ألحقوا بين حين وآخر ببلاط الملوك في أوربا. وكانت الأوراق الرسمية في متناول يده بما فيها مذكرات

obeikandi.com

أغسطس، مما جعله على علم ما أمكن بوجهة نظر الحكومة. كان باستطاعته أن يستخدم، بل لقد استخدم بالفعل الكتب التي صدرت من قبل لا في اللاتينية فقط، بل في اليونانية.. كان رجلاً حسن الطوية أميناً، وكانت نظرته هي النظرة التقليدية لطبقته وبيئته.. وقد بلغت مساوئ الحرب الوطنية وما ترتب عليها من كوارث من الخطر ما جعل ليفي يولي ظهره لها ويلتمس الراحة في رؤية أوقات الشجاعة في الزمن القديم».

اعتمد ليفي في تصنيف كتابه (تاريخ العقود الرومانية) على وثائق تاريخية مكتوبة في كل من اللغة اللاتينية واللغة اليونانية، حصل عليها عن طريق مكتبات روما ومخازن الكتب لدى الدولة الرومانية (الأرشيف). وقد كتبه بطريقة فنية استطاع عن طريقها أن يحرك الروح الوطنية عند الشباب والشابات لخدمة الدولة الرومانية. كما ركز على مكانة الإمبراطور أغسطس ودوره في الحفاظ على صيانة روما وحمايته من الاندثار، لذا يرى وجوب إظهار الولاء للوطن ثم للإمبراطور أغسطس. وهذا الكتاب القيم عبارة عن موسوعة متكاملة يبلغ عدد أجزائها ١٤٢ جزءاً ضاع معظمها. وتتضح أهميته بأنه طبع عدة مرات، فعلى سبيل المثال طبع سنة (١٥٠١ ميلادية) أكثر من عشرات المرات، وترجم إلى اللغة الإنجليزية في ١٣ مجلداً ونشر عام (١٩٥١ ميلادية)، وهكذا انتشر توزيعه في جميع أرجاء المعمورة.

وينقل **حسين محمد سليمان** في كتابه آنف الذكر عن مقالة تحت عنوان (فلسفة التاريخ وصلتها بالصحافة) نشرت بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة (١٩٥٥) لحسنين عبد القادر ما نصه: «ويمثل كتاب ليفي (تاريخ العقود الرومانية) قنطرة تصل الجمهورية بالإمبراطورية، وتربط العهد السابق للمسيح بالعهد المسيحي، فكانت نظرة ليفي إلى مصير روما أكثر دقة، وتحدث عن قصة اتساع الدولة الرومانية ، وعما شعر به المواطنون الرومان من الفخر والطموح، وكانت نظرته أن روما ستقضي على شرور الزمن الذي

يعيش فيه، ما دامت تغلبت في أحوال كثيرة في العصور العظيمة الماضية على كثير من الصعاب والمحن».

وخلاصة القول: يؤخذ على المؤرخ ليفي أنه طوّع الأحداث التاريخية وفقاً لرغبة الإمبراطور أغسطس، وذلك لأن الدولة الرومانية مرّت بفترة من عمرها كانت مزدهرة في كل من النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذا صار يتغنى بذلك ويربطها بأعمال الإمبراطور أغسطس. والمتواتر أن المؤرخ ليفي كتب تاريخ روما بتوجيه من الإمبراطور أغسطس، بهذا لم يكن أبداً مجرداً من التحيز، بل كان يعمل بوجهة نظر رسمية معينة ولأهداف سياسية واضحة.

وعلاوة على ما تقدم فقد تميز المؤرخ ليفي بكل من علم الفلسفة والأدب والخطابة والتاريخ، وتفوقه هذا أعطاه قدرة عظيمة في تقييم الأشخاص، وكذلك مكنه من كتابة تاريخ روما بأسلوب سهل وسلس، لذا تعتبر كتاباته التاريخية ملحمة جيدة يمجد بها الرومان عبر العصور.

أما كتابه الوحيد (تاريخ العقود الرومانية) فكان يشتمل على آراء وأفكار قومية، تبعث الوعي الوطني عند الرومان على مختلف مستوياتهم الثقافية. وبالفعل كان لها صدى عظيم، وعليه صار القادة العسكريون في إيطاليا يستخدمون مقتطفات من كتابه خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، لإشعال الروح الوطنية عند الإيطاليين.

مكانة علم التاريخ

في العصور الوسطى الأوربية المظلمة

عانت الديانة المسيحية في أوائل عهدها الأمرّين، حيث وقف ضدها كل من كبار المفكرين الرومان والحكام الرومانيين، وهكذا تبلور بوضوح العداء للمسيحية بين أفراد الدولة الرومانية عبر القرون الثلاثة الأولى للميلاد. ولكن في سنة (٣١٣ ميلادية) اعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية كدين لدولته؛ لأنها اعتنقت في جميع أرجاء المعمورة، لذا اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالدين المسيحي يعتبر اعترافاً مكرهاً عليه. والمعروف أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ ميلادية) عاش معظم حياته وثنياً ويحارب بكل قواه الديانة المسيحية، ولكن الديانة المسيحية انتشرت انتشاراً عجيباً ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين، رغم معارضته القوية ضدها.

يقول **سعيد عاشور** في كتابه «بحوث ودراسات في تاريخ القرون الوسطى»: «بدأت حركة اضطهاد المسيحية في أوربا سنة (٦٤ ميلادية) في ظل سياسة الإمبراطور نيرون، ثم انتقلت إلى آسيا الصغرى في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ ميلادية) وبلغت مداها في مصر على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ميلادية)؛ أي ظلت القرون الثلاثة الأولى للميلاد في صراع مرير مع الإمبراطورية، ولم يكن اعتراف الإمبراطور قسطنطين بها كديانة شرعية في الإمبراطورية سنة (٣١٣ ميلادية) إلا اعترافاً بالأمر الواقع».

في فترة ازدهار الديانة المسيحية حاول المؤرخون المسيحيون أن يضعوا قواعد عامة لكتابة علم التاريخ، معتمدين بذلك على فلسفة علم التاريخ التي ورثوها عن علماء اليونان الوثنيين، ومن هنا اتجهت أعداد كبيرة إلى التأليف في ميدان علم التاريخ، فصدر لهم مؤلفات كثيرة تدافع عن الديانة المسيحية

وترغب فيها وتجارب الوثنية الفاسدة، ولكنها للأسف تحتوي ـ هذه المؤلفات ـ على كل من الخرافات والأساطير البالية والتحيز العقيم والمبالغات الممقوتة، وهذه كلها توحي بالتعدي وعدم الاكتراث بشروط الكتابة في مجال علم التاريخ، والمعروف أن سبب جميع المخالفات في منهج الكتابة التاريخية ناتج عن سيطرة الكنيسة التي كانت تدعي بوضوح أنها تعمل هذا كله للحفاظ على الحضارة الرومانية المتعثرة، ولا شك أن الكنيسة ساعدت على استمرار الحضارة الرومانية المريضة التي يعتبرها المؤرخون في العالم أن عصرها عصر تخلف فكري.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «كان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في الكتابة التاريخية، وفي الأفكار التي كان يسترشد بها المؤرخون. فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان. واعتبرت الكتابات التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أنزل من مستوى الكتابات التاريخية المقدسة، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلي الذي كانت له المكانة العليا عند اليونان، وأصبح للإيمان الديني المحمل الأعلى والركن الأقوى، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء.. وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها، ولكن برغم ذلك فإنه كان من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم في الديانة المسيحية، ولذلك تأثرت مثلهم العليا السياسية وممارساتهم للشؤون العلمية بالعناصر الوثنية».

لقد كثرت المصنفات التاريخية في عهد الإمبراطورية الرومانية على الرغم من أنها لا تعتمد على الحقائق التاريخية الصادقة ولا تحتوي على تحليل علمي ومنطقي؛ لأن جميع الإنتاج التاريخي آنذاك في قبضة القساوسة والرهبان، وصار المؤرخون يعملون ليلاً ونهاراً لإرضاء الكنيسة، واضعين في حسبانهم

أن الحركة التاريخية عبارة عن صراع بين الحق والباطل، وعليه بقيت الكنيسة هي المصدر الوحيد للتحليل والنقد وإصدار التعليمات التي يجب اتباعها، لذا عملت الكنيسة منهجاً لكتابة التاريخ التزم به جميع مؤرخي الإمبراطورية الرومانية، واستخدم لتفسير الوثائق التاريخية الخطيرة. والجدير بالذكر أنه حدث تدهور ذريع ليس فقط في منهج كتابة علم التاريخ المسيحي ولكن أيضاً في كتابة علم التاريخ الوثني.

يقول **شوقي الجمل** في كتابه «علم التاريخ»: «ولما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ ميلادية) تأثر التاريخ والكتابة التاريخية بهذا الحدث الهام، فقد تحول التاريخ إلى أيدي القساوسة والرهبان، وصار التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له، وتركز في الحوليات التي لا تخرج عن تقييد للحوادث وربطها بأعياد الفصح وغيره من الأعياد المسيحية».

بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي سيطر الجرمان على الجزء الغربي منها سنة (٤٧٦ ميلادية)، وانتشرت حينئذ العنصرية المسيحية المعروفة التي لا تحمل أي حقيقة تاريخية، لذا أجمع المؤرخون في المعمورة آنذاك أن عملاً كهذا يُعتبرُ عبثاً تاريخياً، من هنا بدأت القساوسة والرهبان يعملون ليلاً ونهاراً للسيطرة الكاملة على الحركة التاريخية في بقايا الإمبراطورية الرومانية في شطرها الغربي.. بينما الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية فقد وقع في قبضة البيزنطيين الذين أعطوا ثقلهم التاريخي للكنيسة المسيحية، فصار البابوات لهم اليد الطولى في تدبير أمور الدولة البيزنطية المهزوزة لمدة تزيد عن ألف سنة، في وقت كانت الأمة الإسلامية تحاول أن تجعل علم التاريخ محور النشاط والتطور في المجتمع الإسلامي.

يقول كل من **طه باقر وعبد العزيز حميد** في كتابهما آنف الذكر: «دخلت أوربا من بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية على أيدي البرابرة

الجرمان (سقوط روما في سنة ٤٧٦ م) في عصور مظلمة سياسياً وحضارياً، على الرغم من بقاء القسم الشرقي من تلك الإمبراطورية فيما يسمى بالدولة البيزنطية (الروم الشرقيين) في القسطنطينية، وسادت الكنيسة وعلى رأسها البابوات أوربا إلى مطلع ظهور الدولة القومية الأوربية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وانبعاث ما يسمى بالنهضة الأوربية. والمعروف تاريخياً أنه كان يقابل هذه العصور المظلمة في أوربا عصر ازدهار الحضارة العربية والإسلامية التي حملت مشعل العلوم والمعارف البشرية ردحاً طويلاً من الزمن، وبدأت تنتقل منها العلوم والمعارف إلىجهات العالم، ومنها العالم الأوروبي بطريق الاتصالات التجارية والحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١م) وعن طريق عرب الأندلس في إسبانيا».

وسبب تخلف أوربا العلمي تعثر علم التاريخ تعثراً ملفتاً للنظر، حيث كثر التزييف في كل من الأخبار والوثائق والمستندات، ولذا خمدت تماماً الحركة الفكرية وساد التخلف العلمي في جميع أرجاء أوربا، عليه هبط مستوى الكتابة في علم التاريخ هبوطاً مخزياً، حيث كانت بعيدة كل البعد عن التحليل والاستقصاء والبحث، بل كان علم التاريخ آنذاك عبارة عن سجل للمعلومات التاريخية التي أغلبها ملوثة بالتزوير إرضاء للقساوسة والرهبان.

ويقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «كان المؤرخون في العهد الوسيط في أوربا أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحري والتدقيق في قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي أو الحق التاريخي والحق الشعري، وكانت الملاحم الشعرية تُعد مراجع تاريخية، ولم يكن هناك عناية بكشف الحقائق وإزهاق الأباطيل ما دامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر، وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة، والواقع أن ملابسات الأحوال السائدة في العصر الوسيط كانت تساعد على ذلك، فقد عمت الفوضى، وخيم الظلام بعد سقوط

الحضارة الرومانية، وخمدت الحركة الفكرية، وساد الجهل والتخلف، وفقد الكثير من الكتب المدرسية الهامة، وكان التعصب الديني الضيق من دواعي سلب بعض المكتبات وإحراق ما بها من مؤلفات قيمة، ومن قبيل ذلك حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة».

وخلاصة القول: بعد تدهور الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية، واستيلاء الجرمان الحاقدين عليه، استمر حكمهم حتى القرن العاشر الميلادي، وفي نفس الوقت صار للكنيسة الغربية السيطرة الكاملة على الحركة الفكرية والثقافية والنظم والحركات الاجتماعية والاقتصادية التربوية في غرب أوربا، كما نجحت الكنيسة في تثبيت مبادئ الأنجلوسكسونية، أما من الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية فكان أحسن وضعاً من الجزء الغربي، حيث تولى حكمه كل من الأباطرة جستنيان (ت٥٦٥م) وهرقل (ت٦٤٠م) وليو الأيسوري (ت٧٤٠ م) الذين اشتهروا بمقدرتهم القيادية، ولكنهم جميعاً ساعدوا الكنيسة الشرقية المعروفة بتعصبها الصليبي الأعمى على نشر أفكارها المسيحية الأرثوذكسية في جميع أرجاء العالم. كما حاولت الكنيسة الشرقية أيضاً محاربة مبادئ الدين الإسلامي الذي لاقى ترحيباً عظيماً في معظم أجزاء الدولة البيزنطية، (الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية)، مثل كل من الشام ومصر وغيرهما، وهكذا ازدهرت الحضارة العربية والإسلامية التي استوعبت كل الحضارات السابقة، وأنكرت بصراحة وقوة كل ما يتعارض مع الدين الإسلامي.

لقد سيطر البابوات على الحركة الفكرية في العصور الوسطى لأوربا، حيث كان القساوسة والرهبان هم العلماء وأصحاب الرأي والفكر حينئذ، كما أن الكنيسة أيضاً تبنّت تعليم المؤرخين، والتحيز للدين المسيحي والتمسك الشديد بالخرافات والأساطير البابلية. ولا شك أن مثل هذه التصرفات كانت حجرة عثرة في طريق تقدم وتحرر علم التاريخ من الخزعبلات.

كان المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى الأوربية المظلمة، يكتبون تحت تأثير كل من الكنيسة والأسر العريقة والحكام وأهل النفوذ (أي لأغراض نفعية بحتة)، بهذا فقد تاريخهم صفة علم التاريخ المتفق عليها، بينما المؤرخون العرب والمسلمون الذين يمثلون وجه العبقرية العربية الصحيح، لم يرضوا أبداً أن يكتبوا في مجال علم التاريخ تحت تأثير أي سلطة، لذا كانوا يحللون ويدرسون الأحداث التاريخية بصفاء قلب وروح، وعليه تمكنوا من إبراز مداركهم العقلية الفريدة، فصاروا مجد الحضارة العربية والإسلامية وموضع عزها وفخارها، وهكذا استطاعوا وبجدارة أن يرسوا دعائم حضارة عربية وإسلامية مرموقة، أسدت للإنسانية خدمات عظيمة لا تقدر بثمن.

Obeikandl.com